الفهرس

الخيال 2
مقدّمة 2
الإشكاليّات 2
النظرية التجريبيّة: 2
نقد النظريّة التجريبيّة 3
النظريّة الظواهريّة: نظريّة سارتر 3
نقد النظريّة الظواهريّة 4
التوليفة 5

المحور الأول - الدرس الرابع

الخيال

مقدّمة

يُعتبر الإنسان كائن الأبعاد، فالإدراك مجال الزمن الحاضر، فيعي ما يحيط به، والذاكرة تعيده إلى الماضي، أمّا الخيال فينقله إلى المستقبل.

وقد اتّفق الفلاسفة على أهمّية الخيال، إلّا أنّهم اختلفوا حول طبيعته، كيفيّة عمله، دوره في حياة الإنسان...إلخ، ممّا دفعهم إلى الاهتمام الزائد بموضوعه، خاصّة في ظلّ التطوّر العلميّ والتكنولوجيّ الذي يشهده هذا العصر، فقد اعتبر بعضهم أنّ للخيال الدور الأبرز في إيجاد الحلول وتأمين الحاجات وابتكار نظريّات جديدة، بينما اعتبر البعض الآخر أنّ له دوراً سلبياً يفضي إلى الاتّكال والكسل.

الإشكاليّات

ما هي طبيعة الخيال؟

هل هو استعادة لصور حسّية بعد غياب المحسوسات؟

هل يتجاوز المحسوسات من خلال إبداع صور جديدة؟

النظرية التجريبيّة:

يرى كوندياك أنّ الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة، فالإدراك الحسّي يسبق التخيّل، والأشياء التي ندركها ببصرنا تحفظ كالصور الفوتوغرافيّة وتخزّن، وتبقى في الخيال الذي يستعيدها، ولكنّها بطبيعة الحال تبقى أضعف من الصور الحاضرة، وبالتالي تكون مشوّشة مقارنة مع الصور الأصليّة.

من هنا فإنّ تعطّل أي حاسّة يُفقد الإدراك الحسّي المتعلّق بها، فمثلاً الأعمى بالولادة، لا يستطيع تخيّل الألوان. والمدركات الحسّيّة تترك أثراً في جهازنا العصبي بعد غيابها عن مجال حواسّنا، وهذا يعني أن الأشياء التي ندركها ببصرنا تبقى في الخيال على شكل صور تخزّن في مكان ما في جهازنا العصبي.

والتخيّل عند التجريبيّين يمكن أن يكون :

أ. خيالاً بسيطاً مستعيداً، يستعيد صوراً كما هي مخزّنة في الذهن، كصورة صديق قديم من أيّام الطفولة.

ب. خيالاً مركّباً، كأن يدمج الصور المستعادة ببعضها فيحصل على صوراً جديدة، مثل صورة عروس البحر، فقد دمج وجه المرأة بجسم السمكة.

ج. ذكر بعض التجريبيّين أشكالاً دنيا للخيال، منها أحلام اليقظة، أحلام النوم، التخيّل الطفوليّ، والتخيّل المرضيّ.

نقد النظريّة التجريبيّة

واجهت النظريّة التجريبيّة انتقادات عديدة؛ منها :

1. إذا كان عمل الخيال مقتصراً على استعادة الصور، فإنّه بذلك يعمل عمل الذاكرة، وهذا يتناقض مع تعريف عمل الخيال.
2. إذا اختلط عمل الخيال مع عمل الإدراك الحسّي، فإنّ الإنسان في هذه الحالة يعاني من أحد الأمراض كانفصام الشخصيّة أو الشيزوفرانيا (عدم التمييز بين الواقع والمتخيّل)، أو غيرها من الأمراض.
3. إذا كان الإبداع يتعلّق بالخبرة وتراكم الصور المتخيّلة عبر الزمن، فإنّنا لن نجد عندها إبداعات عند بعض الأطفال الذين نجدهم في الواقع أكثر إبداعاً من البالغين.
4. لو كان الخيال متعلّقاً فقط بالمدركات الحسّيّة، لما وصل العالم إلى ما هو عليه من التقدّم العلميّ والتكنولوجيّ والفنّيّ.

النظريّة الظواهريّة: نظريّة سارتر

يرى سارتر عمليّة التخيّل أنّها عمليّة التفكير بشيء غائب وغير موجود، فهي توجُّه الوعي إلى عدم وجود الشيء أو الفعل المدرَك حسّيّاً. وهو بذلك يكون قد تأثّر بعقلانيّة آلان وظواهريّة هِسْرِل.

يعتقد آلان أنّه لا وجود لصور مخزّنة في الذهن، إنّما تنطبع هذه الصور في جسم الإنسان، ويتمّ التعبير عنها من خلال حركات الجسد، فالخيال لا يستحضر الصور. فمثلاً إذا سُئل

أحدهم عن عنوان ما في حيّ مكتظّ، فإنّه يستخدم يديه يميناً ويساراً، كأنّ صورة المكان تسري في حركات يديه.

أمّا هِسْرِل فشأنه شأن الفلاسفة الظواهريّين الذين يقولون أنّ التخيّل هو إدراك الشيء في حال غيابه.

وهكذا، فإنّ سارتر أكّد أنّ الوعي المتخيّل هو التفكّر في الشيء بوصفه غير موجود أمامنا، فهو إعدام للشيء. وقد ميّز سارتر بين عمليّات التخيّل والإدراك والتذكّر.

أ. التمييز بين الإدراك والتخيّل: إنّ الوعي في عمليّة الإدراك يجد موضوعه بالتدريج، كإدراكي لواجهة محلّ ملبوسات أمامي، فإنّي أحيط بها شيئاً فشيئاً، أمّا في عملية التخيّل، فالوعي يوجد موضوعه دفعة واحدة، فأتخيّل الواجهة كاملة من اللحظة الأولى.

وقد انتقص سارتر من دور الإدراك، فربطه بقدرة الشخص على التخيّل، كما اعتبر أنّ الإنسان يتحرّر من خلال خياله، فقال أنّ الخيال هو "الوعي بأسره من حيث هو قادر على تحقيق حرّيّته".

ب. التمييز بين التذكّر والتخيّل : إنّ التذكّر هو الشيء المدرَك في الواقع من شيء وجد في الماضي، أمّا التخيّل، فهو وإن انطلق من الواقع، إلّا أنّه يعود إلى اللاواقع. فالملحّن يتذكّر مقطوعة موسيقيّة كان قد سمعها، ولكنّه يتخيّل مقطوعة ثانية يؤلّفها.

نقد النظريّة الظواهريّة

ككلّ النظريّات، تعرّضت النظريّة الظواهّرية للنقد بالرغم ممّا قدّمته من مفاهيم جديدة لفهم عمليّة التخيّل؛ ومن النقد الذي وجّه إليها :

1. حصر الظواهريّون عملية التخيّل بالخيال المستعيد، أي توجّه الخيال إلى الوعي، وأهملوا الخيال الخلّاق الذي يحقّق الأعمال المبتكرة في اكتشافات علميّة وفنون إبداعيّة وغيرها.
2. لم يفسّر سارتر اختلاط الواقع بالأحلام، فهو بذلك عجز عن شرح نقطة هامة شرحها التجريبيّون.
3. أبعدت نظريّة سارتر الخيال العلميّ عن الواقع، وأغرقته في الذاتيّة، بينما هو بوظيفته الحقيقيّة يعقلن الواقع ويتّسم بالموضوعيّة.

التوليفة

لا يمكننا تجاهل أهمّية أي من النظريّتين التجريبيّة والظواهرية في تفسيرهما لدور الخيال، ولكنّهما تجاهلتا المرتكزات الاجتماعيّة، فثقافة المجتمع تهيّء للإبداع، كذلك هناك دور هامّ للمرتكزات العقليّة، فالإبداع في أساسه عمليّة عقليّة، كما لا يمكننا أهمال المرتكزات العاطفيّة والحماس الذي يظهره العباقرة أثناء عملهم. إذن فإنّ الإبداع ولو ارتبط بالتجربة والتخيّل المستعيد، إلّا إنّه أيضاً يعتمد على العوامل الذاتيّة والاجتماعيّة.